

****

**دوار**

**الهنادوة**

**مجموعة قصصية**

بقلم

**السيد شعبان جادو**

## 1- حجرة عفا عليها الزمن

الحقيقة مؤلمة، لا تبعد هذه المقولة عن ذهني، أنت لا تجيد فعل شيء، كل ما تملكه مجرد كلمات تتسلى بها، مجرد حروف باهتة، لا أحد يقرأ، أنت تعيش في عالم تناسى ذاته، لم يبق غيرك يسطر تلك الأوهام، البيت يوشك أن يتداعى علينا، المرتب لا يكفي، كل ما تجيده هو أن تسرد خيالاتك المختزنة في ذاكرة تحكمت بك، أنت بعيد عن الواقع، انهالت علي تلك الكلمات صباح هذا اليوم مثل كومة من حجارة جهدت ألا تصيبني، كنت مثل رجل قذف به أولاده خارج البيت، العجز ألا تصاب بالكبر أو يبلغ بك المرض شدته؛ أن تقف قبالة من تحب ولا يعيروك انتباها، هذا ما أدركته، الجحود سمة هذا العالم، لم أدر ما أفعل؟

دارت بي رأسي، يا لحسرة رجل فقد ظله، الحياة صارت بالنسبة إلي شديدة المرارة، كل ما أستطيع قدمته لكم، عيبي أنني وجدت الماضي أكثر رحابة فتعلقت به، انزويت في حجرتي التي أجد فيها بعض الأمن والهدوء المفتقد في عالم يطالبني كل ما فيه بالصخب، ينتزع مني ذاتي، ألفت التعلق بأنفاس الراحلين صوب الضفة الأخرى فما أجيد فعله، أن أمسك بالقلم وأخط به على وجه الصفحة البيضاء، في أحيان كثيرة أشعر بأن الأحلام تسكن هذه الورقة، يجول قلمي؛ فتنشط ذاكرتي من خمول وتميس فتنة وحياة

أسمع بعض دقات متتابعة على نافذة حجرتي، الشارع علاها، المارة لو ألقوا بأعينهم لجاسوا خلال البيت، يا لقسوة الفقر، يغتال منك أجمل اللحظات " المال والبنون زينة الحياة الدنيا" سمعت هذا من قبل، لم أع دلالته إلا الآن

كأنما قول الله عز وجل يستحثني أن أنهض، أن أدع الموات الذي سرق مني عزيمتي، تعللت كثيرا بما تألمت منه، وهل الورود مغلفة إلا بالأشواك، تذكرت أبي وقد أمسك بالمعول يشق وجه الأرض، أمي وقد انحنى ظهرها وهي تمسك بمقود الدواب ردفا لأبي، لم يتألما يوما، أف لهذه المسكنة التي غلبتني، كل يوم تشرق الشمس، التحفت الأشجار الضوء، لم يصبها الوهن رغم مرور كل هذه الأحداث الكبرى، فكرت في دار أخرى، الرحيل!

لكن إلى أين؟

سرقت الاقلام والأوراق سنوات عمري، أحلامي دائما كانت مؤجلة، قاتل الله طول الأمل، ليتني أخذتها على انفراد، ماذا جنيت غير تلك الوعود الكاذبة بالتغيير، كنت مثل سحابة صيف تصيب سرابا بقيعة، الظمأ لا ترويه تعلات المنى، جرى قطار الحياة مثل خداع امرأة لعوب، الجميع يعلم فعلتها، لكنهم يشتهون تلك الأصباغ الزاعقة، هيهات تفلح السعادة معها، الآن ويا لقسوة الآن ما تراني أفعل؟

أمسك بالقلم، تلك مهنتي التي أجيدها، أن أدون الكلمات، أسرد منها حكايات، ربما يأتي يوم يجد فيه السائرون ناحية المجد تذكرة عودة، لا يكفي أن تكون دون جذر، سأبقى هنا قبالة هذا النهر، سأجعل من حياتي وقفا عليه، أن أحرس الماء، الغدر أن يأتي هذا اللص، يحول المجرى، يحنون للدخول الكبير، البلهاء على مسرح المقامرة يصفقون، بالأمس دموع التماسيح، انتشى يوم جف النبع، يأتي بالحيل، ياله من ثعلبان!

حتى السماء لم تنزل منها غير دموع وحسرات والهة، الحقول أصابها البوار، الرماح تصوب ناحية الصدور البريئة، الأوراق التي صارت مثل سندات دين وجب سداده، تقبع هي الأخرى في حجرتي!

## 2- البيت الأصفر!

الناس يشترون أشياءهم التي يحتاجون إليها؛ لتستمر حياتهم، لن أطيل في تعددها الكل يعرف هذا، أما أنا فقد احتجت لأن أشتري شيئا آخر، أحتاج أن أضعه في واجهة المحل، لن يعرض للبيع، سأجعله شارة لما أنتوي فعله، جميلة تلك المفردة، في يوم ما خرجت من فم ذلك الرجل الغامض ذي النظارة السوداء، لقد كان يوما من أيام الحلم المسفوح على رصيف الميدان، ربما يصفني أحدكم بالخروج عن المعتاد، لا بأس، كثيرا ما وصفتني أمي بأنني متمرد، زملائي في المدرسة هم أيضا أطلقوا علي الفيلسوف، لست هكذا، كل ما في الأمر أنني أنظر من زاوية مختلفة للعالم، قديما تعلقت بالشعر واللغة، جمعت الكثير من القصائد، دونت أفكارا تصلح لزراعة الصحراء، بنيت مساكن للفقراء فوق مياه البحر، الخيال بالنسبة إلي كان زاد المتعطل، الآن وبعد مرور هذه الأحداث الكبرى، فكرت في أن أدير محلا لبيع الأحلام والأفكار الجديدة، الكثيرون سيسارعون بالاتصال بالسراي التي يوما كان لونها أصفر، حتى دلالة هذا اللون تحتاج تفسيرا، ولم جعلوها سراي؟

ألم يكن بهم حاجة أن يطلقوا عليها "بيت" حقا يكون أجمل " البيت الأصفر" على شاكلة هذا البيت الذي يسكنه الترامب!

لن أتكلم في السياسة، يكفيني تلك السياط التي حفرت أخدودا فوق ظهري، أما أنا لن أبيعهم الأحلام والأفكار الرائعة دون مقابل، حين تكون السلعة زهيدة الثمن لا تجد رواجا، تعلمت هذا من آدم سميث، علي أن أحسن تغليف الأحلام، نحن في عالم مسكون بالرغبة في الكذب، أجمل النساء هي من تخفي آثار الزمن على وجهها، تحسن معالجة الملل الذي يحوط بالأمكنة الباردة، يا لقسوة الحجرات الصفيح حين تصب الشمس حممها في أيلول ذلك الشهر ارتبط كثيرا باللون الأحمر، ثمة علاقة بينه وبين اللهب الذي أحرق شجيرة الياسمين التي عبقنا من أريجها ذات يوم، يبدو أن سلعتي لن تجد من يدفع لأجلها، ومن تمام خيالاتي التي تتوالد من بعضها، نعم مثل الخلية الوحيدة التي أخرجوا منها النعجة دولي، أعلم أن القابعين حول مكحلة النساء، والمتنمصين سيقولون: حرام!

كم تخدع المفردات من فم اللصوص بدلالات الكذب، وتلك الزهور التي قطفت يوما كانت حلالا؟

وهل الخصر حين تمايل مبشرا بيوم وردي كان من المباح فعله وقوله؟

لا دخل لي بهذا، أنا فقط أقترب من البيت الأصفر، ألم أعاهدكم أنني سأغير فقط المسمى، ربما سألجأ إلى المقايضة

حلم بحلم، لن أتعامل بالنقود، يقولون إن من مسها قد يصاب بأمراض معدية، يا لهول المرض، ومن ثم يذهبون بي إلى تلك الكانتونات ذات القطط السوداء، إنها تتعايش على بقايا أمعاء ساكني البيت الأبيض، لكم يخيفيني هذا الترامب إنه محمر الوجه، كأنما هو . . بري، ربما يذهبون بي بعد إلي هناك، يا لبشاعة كوبا!

سأعلق على واجهة المحل عبارة: هنا نشتري الغد!

جميلة أليس كذلك؟

لكن الكثيرين سيحضرون معهم سلالا وأوعية، الجوع وحش قاتل، يظنون أن كل ما بالمحل يملأ البطون

الضاوية!

ستكون فكرة جيدة حلم لأجل الغد، ترى هل ستجد قبولا؟

علي أن أدعو الكسالى ممن هم على شاكلتي لغد أن نجتمع ونلوك الحكايات مثل هؤلاء الذين غادرهم قطار الحياة جبرا!

## 3- الرحلة المتدثرة بالألم

سأشرع اليوم في عمل جديد، المؤجل دائما يثقل فكري ويعطل مسيرة حياتي، ترددت كثيرا في اتخاذ هذا القرار؛ أن أنتقل من هذا البيت، لقد رحلوا جميعا، لم يبق إلا أنا، الآخرون امتطوا قطار الليل، لم أشاهدهم، تحت ستار ظلمته تدثروا بها، تخفوا حتى لا تخبو عزيمتهم، حملوا أشياءهم، العيون بكت، النفوس أصابها الوجع، الرحلة مجهدة ولكن لا بد منها، هكذا أخبرت أولادي، لم تعد تصلح تلك البلدة لنا وطنا، الغربان تحوم حولنا، الأبواب صارت لنا بوابة قبور لا نافذة حياة!

لم أحدد وجهة للسفر، كل ما في ذهني ما هو إلا بعض لهفة للتغيير، حب الحياة ما يدفعني لهذا، صوت في داخلي: بيت الأجداد، عبق الماضي، الجذور، يجيب الصدى: حجة واهية، وما نفع تلك الظلال الباهتة، هل ستعطيك الخبز؟

هل يوما تمنحك الأحلام المغتالة في وضح النهار؟

ماذا أحمل معي؟

لن أترك شيئا أندم على تركه، حتى قصاصات الأوراق سأحتفظ بها، الخيالات الحالمة ستصحبني، أغاني أمي سترافقني، آيات الله بصوت شيخي ستكون وردي، هي لن تتركني، وهل فعلت هذا إلا لأجلها؟

البيوت المتلاصقة تذرف دموع الوداع ثمة حنين إلينا، إنها ذات شوق لهؤلاء الذين عطروها بأنفاسهم، في السابق كنت لا أقوى على البعد، تعود إلي رئتي حين أتنفس هواء الطرقات المتربة، أحببت منظر الدواب تسرح في جنباتها، أما اليوم صارت مثل علب الليل التي تزحف وتموج داخلها الخطيئة، يا لبشاعة الحاضر!

ربما الحزن هو ما يسكن داخلي، أنا المصاب بالقرح، الأبنية كتل صماء، نحن من يعطيها دفق المشاعر، الأشجار لا تطرب رقصا لي بل تلك عادتها، الظنون تستبد بي، لم كل هذا الألم؟

ليتني ما ارتحلت

الأبواب تصدر صريرا كأنما هو نشيج باك آلمه الفقد وآيسته أوبة من أحب، كلما أتى ليل استبد به الحنين وجدا لطلعة وجه المحبين، هيهات يأنس لتلك الأصوات التي تختلط بمكر الخيانة، صارت المواطن منافي، والصدور من وقع الحقد مرتع الخائنين، ما عادت بي حاجة للبقاء، حين يأتى القطار محملا بتلك الأجساد التي تكدست مثل أجولة القمح في مخزن أبوراس، سألحق بهم، لن أمتاز عنهم بشيء، ساتخلص من لغتي، لا حاجة بي لتلك الكومة من الأوراق التي سعيت عمري لأنالها، اللصوص في القرية احتازوا النهر، لقد بدلوا المياه والجزيرة إلى علب إسمنتية لا نفع لها إلا أن تكون مدعاة لوجاهة مختلقة، تحاول أن تغطي عمالتها لذلك الشيطان !

اليوم وجهتي للغد، حتى يأتي ذلك الحلم منتشيا بثوبه الأرجواني، لن أبقى لأتجرع مرارة الحرمان، هناك عالم يسعى جاهدا ليدرك القمر في تمامه، سأمد يدي لأقبس بعض ضوئه، ولعلي أجد عنده هدى !

الساعات تمضي في رتابة وتوجس، لم أتعود على هذا، كنت مثل جواد امرئ القيس يسابق الريح، ما الذي دهاني؟

اعتلال جسد وكلل بصر، ووهن عزيمة، الشوق برح بي، لم يدع لي مخرجا، هل سأغادر تلك الأماكن وقد نصبت للحب ألف راية، تحت هذا الركام من الحقد تكمن عاطفة موارة!

شيء واحد سأحرص على أن يكون معي؛ أول سطر خطته يدي ما يزال بتلك الورقة، رغم أنها صفراء، لكن بعض ذكرى هو ما يجعلها ذات قيمة.

لا لن أكسر قلمي!

كتبت في حالة يأس وغضب عن كسر الأقلام، لكنني عدت إلى صوابي، وجدت أن القلم تعلة رجل مثلي ؛ يتواصل به مع أحبائه ؛ يكتب بعض همه، يتفاعل مع عالمه الافتراضي، يصاحب الفضلاء، ربما كان عليه أن يصمت كثيرا، يتناسى أن بنفسه جراحات تنزف كلما عاود الكتابة، يتداوى من جراح بجراح، نضب معين كان يستقي منه، الرعاة كثر ؛ يتزاحمون النهل يطلبون مزيدا، يسائل أنداده أن يهبوه بعض خلب من أمل، طرق كل الأبواب، سار يحمل عساه بين الحارات، طاف بالوطن شرقا وغربا، يريد أن يجد موضعا لجسد منهك، يبصر مرآه فيجد رجلا قد انحنى ظهره، تغضن جلده، خارت قواه، بل حتى رغائب جسده صارت باهتة، كان يظن نفسه المتنبي في عنفوانه ؛ لكنه عاد لا مال ولا أهل ولا وطن !

تعلات ماضر لو نفر منها، يتدلل البؤس في وطنه، يختال مزهوا بباطله، يعتصره الهم ألا يكون البهاء والجمال موضع العين.

أما حكاية القلم معي فقد بدأت من عمر مديد، حاولت جاهدا أن أمسك به، كان في بدايته عصيا، ينفر من يد صبي غر ما يجد له في عالم الشباب غير تله به، وكان لداته يأتون من اللعب صنوفا يعجز أن يجاريهم فيها، ينزوي بركنه ويخرج قصاصة من جريدة ويمعن فيها قراءة، يستجيد بعض كلمات من هذا، ويطالع بعض سرد من ذاك، يذهبون لملاعب القرية أما هو فكانت ضالته مكتبة فقيرة بمركز الشباب !

عرف نتفا من كتب، له ذاكرة عجيبة عرف الأدب والفلسفة والفكر، حتى رائحة الكتب في خزانتها، كانت عطره الذى يستشفه ويملأ خياشيمه منه .

مرت سنونه سراعا وكان القلم خدنه، تغاضبه المفردات، وتداعبه المعاني، له ولع بوطنه، يحب كل ما كتب عنه، ينظر أهله في طيبة ووداعة، لكنه يعتب عليهم ذلة وانكسارا

يخطب فيهم بقلمه ولكنهم لا يدرون غير سكون قاتل، المرض والجهل يغلبان شعبا، والبطش والقهر يسكتانه، ترى هل يجد القلم ضالته في وعي ؟!

## 4- حلم عند ضفة النهر

الكلام حين يكثر ينسي بعضه بعضا، ورغم ذلك البوح إلا أن ثمة حكاية ما تزال تلح علي أن أمسك بالقلم وأسرد بعض تفاصيلها؛ فبرغم لكنة في لغتي، إلا أنني أجيد الحكي، هذا كل نصيبي من ثروة جدتي، تركت في ولعا بالحكايات، مضى ذلك العمر سرابا، لم تعد الألوان زاهية كما عهدتها، الثياب صارت أشبه بلوحة سريالية، حتى الأفكار ما عادت إلا تهاويم مجذوب، لقد اختلطت كل الحواجز، عندنا يقولون: اختلط النيل بالمالح، كثرت تلك الآلام جعلتني التمس الراحة، لأول مرة أغادر البيت دون بطاقة، ما حاجتي إليها؟

لقد ثقب الهم ذاكرتي، الناس تعرفني، والآخرون يعدون علي خطواتي، لست ذا خطر، على أية حال، أمسكت بورقة وقلم، كلما مررت بباب أخط في الورقة كلمة، كثرت المفردات، وتعددت المواقف، حاولت التخفف منها، ألقيت بعض الحروف في الماء، تخلصت من ثقلها، انتظرت قليلا، هاهو النهر يتحول ماؤه إلى محبرة كبيرة، حتى صارت الكلمات من حروفي سطورا متتابعة، هنا حكاية اندثرت وأخرى تجمعت أحداثها، ثمة كلمة لم تظهر من بين تلك الكلمات، مفردة تركت فجوة، أعلم قصتها، وحدي من يحتفظ بالسر، لقد أخفيت تلك المفردة، وضعتها في معجم، لم يدركه لسان العرب، أصابتني إغفاءة، جوار شجيرة السنط التي كانت تربض فوق الضفة الشرقية من نهر النيل، هذا هو المكان الذي اختزن الحكايات، لم يشهد مثله تلك الأحداث الفرحة يوم أن هتف الزعيم، لقد كان له مريدون كثر، الغفوة حلوة، جلبت إلي أطياف الراحلين، تسامرت معهم، أدركت أن الطريق أوشك أن يبلغ بي نهايته، حتى هي كانت هنا، أعطتنا رقم هويتي الذي كنت تركته في البيت، الثياب الخضراء، وجه القمر، خصلات الشعر ذات اللون المريمي، السعادة التي حرمت منها، يا لروعة مفرداتي لقد تشكلت في لوحة ربما فاقت ما يفعله "دافنشي" ابتسمت لي بعد ضنى، حاولت أن أقرأ بعض سطور من تلك اللوحة، الكلمات تداخلت مرة ثانية، النهر ابتلع الحروف تباعا، رغم مهارتي عجزت أن أصطاد حرفا، أفقت على صوته، لحيته البيضاء تعطي وهج الشمس وبريق القمر، قص لي حكاية النهر والحرف، شربت من يديه، فماؤه غير ما في النهر، الوعد قادم

أشار بيديه عند الضفة الأخرى قرب الوادي الأيمن، عند ملتقى النهرين ستخرج الأرض نباتها الطيب، هل حقا سيأتي حاملا سيفه؟

أم أن تلك العطور التي سكبت على قارعة الطريق ستضوع قوما أشد بأسا؟

أدركتني حين هممت بالرحيل، أمسكت بي، ولأن القلب معنى بها، استجبت إليها، تعرف وجهتي، أخذت بيدي، أشارت هيا!

تلفت صوب الصوت، اللوحة تجمعت ملامحها، وحده كان هنا، لم ينس شارته التي وسم بها كل بيت، النهر فاض، لم تعد بي حاجة لأن أتتبع الحروف، يكفي ما اختزنته لسنوات، حين تأتي الأمطار تغسل الدرن، تلك كلمات جدتي الخضراء، يا لبراعة الطيف الشيخ والجدة!

## 5- عودة

وجدت الباب مفتوحا، لم أتمالك نفسي من السعادة التي ملأت قلبي، حان الوقت أن أدخل بيتنا من جديد، الأماكن تحمل الذكريات مثل أم عطوف، هنا كان يحلو لأبي أن يجلس؛ بعد كل صلاة كنت أسمع دعاءه، لم أتذكره يوما يغتاب أحدا، أمي مثل الشجرة الطيبة تقف في شموخ جوار البيت، أنا وإخوتي في مهد يحنو علينا، ترى ما الذي فرقنا؟

لا أستطيع تذكر تفاصيل الزمن الفائت، ثمة جرح ما يزال ينزف، لم يلتئم رغم مرور تلك الأعوام التي ناهزت الثلاثين عاما: الرحيل!

صوب وجهة لم أدر سببا لكل هذا، قيل لي: إن الحياة هناك أفضل!

هكذا بدأت الجذور يصيبها الموات، عاطفتي تشتت، رياح الخريف ضربت أركان قلبي، تركت ذكرياتي الواهنة هنا، الأقلام والكتب، حقيبة المدرسة، الممحاة وأدوات الهندسة، ذات الوجه الجميل، ترى أين هي الآن؟

هل ما تزال تتذكرني؟

الأشجار والخضرة، القلوب التي كانت صافية مثل اللبن الذى كانت تحلبه جدتي من ضرع البقرة الصفراء، تركت كل هذا واغتربت، منذ هذا اليوم وأنا أعيش ممزقا، ما أصعب أن تنقسم نفسك!

مضت بي الأيام لم أمسك منها غير خيوط العنكبوت، كل أصدقائي يرحلون، وحدي ألتمس بقاياهم، أعاود فتح صفحات كتبي الصفراء، هنا في هذا البيت كان يحلو السمر، ليالي الشتاء الباردة كم كان دفء القلوب ينهي تبلد الأطراف، بدا لي أن العمر يستدير مرة ثانية، أحاول جاهدا أن أجد ذلك المفتاح لقد تركته جدتي هنا، يا لشقاء من يأتي دون أن يعرف أين تختفي الأسرار!

شرعت في فتح الابواب المغلقة، التراب صار مثل تلة معفرة، لا تبين الملامح، الأسرة تآكلت، حتى الألوان على الحوائط صارت باهتة مثل واجهات المقابر المهجورة، وضعت يدي على وسادتي وجدتها تتقطع تحت يدي، الراحلون أخذوا الأشياء معهم، حتى عبق أنفاسهم لم يعد موجودا، وهم تعلقت به ثلاثين عاما ؛ أن أجد الفائت من عمري هنا، الساعات تمضي، صرت منعزلا عن العالم الصاخب من حولي، أشبه بمن أتى الكهف، حتى الممرات تداخلت، ربما هذا البيت يسكنه آخرون، أليست الجن تسكن الأماكن الخربة؟

ولأن الوهم بدأ ينكشف، استعدت لحظتي الحاضرة، لم يعد مقبولا أن أبقى هنا، لم آت لأبكي على الماضي، لقد تشاجرت أنا وهي، المدينة تلك المرأة التي تضع الأصباغ على وجهها كل آونة، عليك أن تبني لنا بيتا هنا، دعك من تلك الخيوط الممزقة، بع هذا البيت، لقد صار شبح قوم اندثروا، بالفعل أتيت لأجل هذا، لكن ما إن خطوت بداخله حتى سمعت صدى صوت أبي، مثلت لي أطياف أهلي، كرهت أن أعيش منزوع الهوية، ما الذي فعلته؟

لا أعلم تفسيرا لهذا؟

شرعت في تنظيف البيت، كلما أزلت الركام تعود الذاكرة قوية، لقد وجدت الآنية كما تركتها أمي، الصنبور به الماء، النوافذ جلبت ضوء الشمس، يا لجمال المكان!

العصافير وأفراخ اليمام دخلت البيت، لن أرحل مرة ثانية، سأبقى هنا، أوشك الليل أن ينتهي، كفاني تبعثرا في بلاد الله، أريد لجسدي حين يداهمني الموت أن يرقد جوار أبي وأمي، ليس معقولا أن أدفن في بلاد غريبة!

## 6- دوار الهنادوة!

ذاكرتي مثل سحابة شتاء هذه الأيام، تتداعى إليها نتف كانما هي تحاول أن تعطي ولكن بقدر، القرية هنا مثلما عرفتها تقبع عند ضفة النهر، ربما لا تمتاز بشيء إلا ذلك الموقع، قيل: إن الباشا مر من هنا، ترك أثرا من بناء ما يزال بعضه موجودا، انتهبها غول ما ندري صفته كل ما تعيه ذاكرتي ذلك الحدث الكبير، احتربت القرية ومن ثم احترقت، البعض ما يزال يتذكر، الكثيرون نسوا بل تعمدوا أن يعايشوا المعلبات نساؤهم يطبخن بالسمن الصناعي، أبناؤهم مثل أعواد الذرة المهشمة جوار حائط ذلك الدوار لا يعرفون لبابه مفتاحا، يوم أن كانت الإبل تمضي الصيف حاملة أحمال الفول والقمح، النورج كان يسبح في فضاء الجرن، والثيران ترغي ولأصواتها نشوة الخصوبة وقوة الفحولة، ما أدري لم صارت هكذا عجفاء، لا تدرك الإناث، واهنة كأنما خارت قواها حتى لا تعود مرة ثانية تناطح ذلك الغول!

البعد عن موطن الأجداد يترك المرء عاريا، حتى صرت مثل شجرة الجميز العملاقة حين ضربها الخريف لا غطاء بل ولا دفء، بعد مرور أعوامي التي قاربت الخمسين ما يزال بي حنين لأن أستمع لحكاية جدتي: في ذلك الدوار كانت النسوة منشغلات بولادة طفل جديد، الجمال تسربت من الجرن، تعاهدت أن تنال وجبة الغداء؛ كان حماما محشوا بالفريك!

الشيخ هنداوي كان رجلا طيبا، استند على عصاه، أمسك بها هاشا، مسح على لحيته، إنه يحب أن يحدث الخير حتى ولو كان الطعام، القرية تسامعت بكرمه، ومن يومها يقال: لقد ضيف الجمال !

الغول يكره هذا، يحاول ألا يبقى من تلك الضفة الأخرى ما يكشف عواره، يجيد التلاعب بسن القلم، كل أزقة القرية تعرف مشيته، لم يكن يدفع غير الإثم!

من بعيد وقفت أستشرف القادم من العمر، الهجانة كانوا هنا، يضربون الأرض بأقدامهم التي تشبه خفاف الإبل، لعيونهم بريق يخيف في ليلة العتمة، وحدي كنت أتلصص عليها، لشعرها حين ينسدل إغواء الجمال، كان مثل أغصان الصفصاف المدلاة، علم بها الغول، هو لا يترك للحالمين كوة ينظرون الأمل من بين نوافذه، أترضى بهذا المجدور؟

## 7- نبات على كوبري عبد

اليوم نحن على موعد مع جز الحشائش، لقد غفلنا عنها طوال الشتاء؛ ظننا أن البرد سيقضي عليها، ثمة جذور منها ما تزال تتخفى تحت أوراق الشجر، إنها عوالق تتحين بعض دفء لتعلو فوق السيقان، لا نفع لها مثل هؤلاء الطغام الذين سودوا وجه الوطن، ليتهم اندثروا مع تهاويم السحر الأسود الذي انتشر في كل النواحي، لقد أطلقوا أعواد البخور الشيطانية، استحضروا كل الترهات، استجلبوا العرافين، حاولوا جاهدين أن يسدوا تلك الثغرة، بل تمنوا له أن يجيد امتطاء ظهر الجواد، لكنه ويا للعجز لم يتمالك نفسه، كان يعاني من رجرجة، لم يحسن يوما أن يمسك بالعنان، بالفعل كلما رأيته خلته قد جيىء به قسرا، ليس له هذا، الكلمات حين أدخلها عقلي أعجز، لا بل أنا العيي، هو نابهة، يحسن كل شيء بل هو مرود في حلبة يدور معها كيفما اتفق له، الأمنيات الحالمة لا تطهو اللحم ولا تصنع ثريدا، السنوات العجاف، الخيول الضامرات كأنما هي جعل فرض علينا أن نقامر بها في متاهة العجز، هيهات يحسن الأصم بالحداء!

أبي أمسك بالمعول استحثني أن آتي على جذر العليق، كلما قطعت واحدا وجدت حبائله تمتد مثل ورم سرطاني، كنت دائما أتخوف أن يغافلنا يوم المطر الشديد، بالفعل حدث هذا، الأوراق الخضراء حجبت عنها شمس الحياة وها نحن نشتكي البرودة ونعاني الموات، حين كنت أعبر كوبري عبد، ذلك المعبر الخرساني، وجدت ترعة النوبارية أصابها الجفاف، تذكرت يوم أن جاء زميل لنا من الحج الأكبر، فوق الحطب أعد قصعة من لحم الإبل، آه تذكرت هو من أولاد علي سمالوسي ويفتخر له ما يشاء من ذلك، فلقد ربح الحج واغتنمنا بعض قطع من لحم، لم تعد النار تعطي الجمر، ولا حتى شربنا غبوقا، عادت الأحجار بيضاء لا تسر الجوعى، فوق كل ذلك غامت عيني وراء تلك المتاهة التي ضربت أوتاد الخيمة، إنه يلهو بل يذرف أحيانا دموع التماسيح، انتشى يوم جف النبع، من بعيد رأيت حرفوشا يقف عند نهاية المعبر، يبدو أنه مصاب بارتعاشة في أطرافه، يتسول طلب بعض مال، هيهات يجد مع مثقوب الحافظة ما يشتهي، استدرت وقد استجمعت شتات أمري، حرفوش وعبد، فيما مضى كان يحلو الشتاء، والآن النفس نهب، والصدر مرجل!

عاودت السير ناحية الماضي، أزمعت الرحيل إليه، لكن بعض العوالق تمسك بي، فالعليق وهو واحدها، آه ظنت أنني تخلصت منه، إنه يعلم اللحظة التي يداهم فيها الحديقة، أبي فعل بنا هذا، ليته كان يمتلك معولا حادا، رجوته أن يدع طيبته، لقد أمسك بي وقال: إن العليق يعلم الكسول صنعته!

تركته لتقاوموا، وهل تطيب الحياة لمن أدمنوا الترهل؟

حكيم أيها الوالد، لكننا ضعفاء عالة نتكفف الناس، هكذا أجبته، لا عيب فيكم غير التعجل، سأمسك في العام القادم المعول حتى أنهي ذلك الخطر.

## 8- عفوا حذاء مشترك

في أحيان كثيرة تحدث أشياء يصعب علي تفسيرها، ربما هي خارج المنطق فلا قيمة لها، صرت واهن الجسد، أحمل عبء السنين على ظهري، التعب نال مني، أعيش في عالمين لا يوجد رابط بينهما، أول أمس ارتحلت مرة ثانية حيث عالم فرض علي أن أتواجد فيه، لا بد من الذهاب مبكرا، ولأنني عجل دائما، الذاكرة غامت حين بحثت في خزانة الأحذية لأدس قدمي في ذلك الحذاء الأسود، لم أستبن أي واحد هو لي، ولأن الأحداث متداخلة، والأفكار مضطربة، فقد هاتفني ولدي غاضبا ؛ أنني بدلت إحدى فردتي الحذاء، حمدت الله أنهما تتشابهان كثيرا، وأن لم ألبس واحدة من حذاء زوجتي، يحدث كثيرا أن يكون الجورب هكذا، غلبتني سخرية توشك أن تحيلني هازئا، اليوم تغيم رؤية الوطن تحت وقع النشوة الكبرى؛ المعدمون يهتفون بالفوز في ملهاة تضرب أوتاد الخيمة، السمار ينشدون أهازيج النصر، لكنهم لا يلتحفون غير العراء، ولا يتناولون سوى بضعة أرغفة يابسة، ما تفيد تلك السخافة إلا مزيدا من التسول، الأواني فارغة، شرائح البطاطس بيضاء فلا لحم لدينا، ولن نتناول المرق!

ولأنني كاتب قصة تشغلني مفرداتي، تبحث فكرتي عن بطل ليمثل على خشبة المسرح، من بعيد تأتي كلماتها، ما عاد العراق سوى ثوب خلق، بغداد يؤمها ابن العلقمي، ودمشق ألف وجه كاذب يكتب لها الدستور.

كل العواصم صارت مدن ملح، المخدرون يقبعون في الزاوية المعتمة يلوكون الحكايات القديمة، يجترون الأحداث نفسها، ذاكرتهم متوقفة عند بطولات الزعيم الخالد، وفي نهاية اليوم البطيء مثل دودة الحائط المتشح بالعفونة واللزوجة يزحفون إلى مخادعهم، يضاجعون الفقر، ويتناولون أرغفة الدعم التي تشبه صكوك الغفران، وفي الصباح يصلون قبلة البيت الحرام، حقا بلغ بي العذر نهايته، فالجورب ذو ألوان متعددة، من كل أرتدي، حتى الكتب على المائدة مضطربة، أحاول أن أمزق ذلك الثوب المسدل حجابا عن عيني، القطار كان يمر من هنا، منذ سنوات كنا نبتاع الآن العملة الخضراء زاحمت الجنيه، العتمة تطبق مثل ذئب عم سلطان ؛ يالها من حادثة تعاود ملحة كلما سمعت نباح الكلاب خارج البيت، إنه يقتنص الفراخ من الكن، أمي كانت تفجع كل صباح في دجاجاتها، الآن هو يبيعنا البيض الواحدة بجنيه ونصف، لم يعد يمزق بطونها، ما سرقه طوال سنين الغفلة التي أدمنا فيها الحكي، حتى غفلنا عن أحذيتنا، بل سرق منا عطر القارورة اليتيمة، رائحة أجسادنا أشبه بخزانة عتيقة دس فيها الزمن أشياءه!

أحاول جاهدا أن أتخلى عن بعض أفكاري، ما يضيرني أن أرتدي شارة هؤلاء!

لساني يعجز أن يؤدي بعض تلك الحروف الهجين، يكفيه الانفصال عن واقع مدلس، الملهاة تسير فيها الشياه ولا تدري أن المقصلة منتصبة، ذئب عمي سلطان يقترب كل ليلة من حظيرتنا، الجراء الصغيرة صاحبته، عرف كيف يترك لها الفتات، صرت غير آمن، سأترك الحديقة، ما عادت تعطي ثمارها، سأتاجر في المعلبات وحلوى الأطفال، لا سأجمع قطع الحديد، وأغطية العصائر المعلبة، في " بنها" كنت أشاهد رجلا يبيع المياه في عربات القطار، لم تعد بي حاجة لحذاء متسق، سأتسول حافيا، حتى الكتب ما أجدت نفعا، ولا زجاجة العطر بقادرة أن تمحو الرائحة.

## 9- جيب عوض المثقوب

اقترب الشهر من منتصفه، أدار الأستاذ عوض يده في جيبه، تلك كانت عادته حين تسأله زوجه عن بعض مال، فكلما كانت قرارة الجيب ذات عمق دل ذلك أن المرتب قد أوشك على النفاد، التفت إليها قائلا: كم بقي على نهاية الشهر؟

- أم خليل: لايزال الشهر على حاله!

- لا عليك ربما وضعت باقي المائة جنيه في مكان ما.

هو كثيرا ما ينسى أشياءه، ولذلك من باب الحيطة، كانت تضع يدها على المرتب كله، وتشعره أنهم يستمعون لنصحه وتدبيره كل يوم، كم هي ماهرة!

عوض يعمل معلما، ولأن مهنته تسلب أصحاب العقول قدراتهم، إنهم طوال اليوم ما بين شرح وتصويب أخطاء، يدورون من فصل إلى فصل، يحدث أحيانا أن تجده أم خليل وقد أرقه النوم، فيأتي بإشارات متتابعة، افهم يا علي، تعالي امسحي الخطأ يا أمينة، رائع إنشادك يا إيهاب، صفقوا لهدى!

تعيذه بالله ثلاثا من عين جارتها أم سحر، فعينها نافذة، ولأنه طوال الأسبوع متعب، الدروس الخصوصية يا لها من طاقة الستر التي فتحت لهم، ظل طوال سنوات عمله يكرهها، ولما كانت تجيد الكلام المعسول، روضته مثلما يفعل الحلو مع الأسود، أخذت بنصيحة أمها بعض تدلل وكثير تشكي، نسي أحلامه بأن يكون مثل الرافعي أو حتى أنيس منصور؛ كان ينفق -قبل أن يتزوج- كل مرتبه على تلك الكتب، يطيل شعره ولا يهمه أن يراه الناس مثل ديك الجن، لقد كان أشبه بإنسان الكهف، يحتسي القهوة وينام كيفما اتفق له.

أول مرة رأته- حين رأته في زيارة مصطنعة للمدرسة، أمها كانت العاملة هناك أشارت عليها بأن تأتي- نفرت منه، وهل تقبل فتاة برجل تعلوه فروة شاة.

لم تكن ذات نصيب من غنى، ربما أوشك قطار الزواج أن يغادرها دون أن تحجز به مقعدا!

ولأن جليلة - أمها- تبكي حرقة لحالها، أخذت بالحيلة مرة وبالمصارحة؛ أحيانا تثني على الأستاذ عوض زميلهم الجديد، تتحدث عن طيبته أمامها، لكنها أبدا ما ذكرت أنه يشبه غول أم الهيثم!

ندت منها ضحكة خفيفة، حين تخيلته مقصوص الشعر مهندم الثياب، يا لحلاوة وجهه لو زاره زينهم الحلاق، وكيف تقنعه بهذا؟

لقد مضى على ذلك اليوم أكثر من خمسة عشر عاما، ها هو اليوم مستأنس ببيت الزوجية، انقطعت عنه عادته عن شراء الكتب، يعتاش من وظيفته، أفلحت أم خليل في تقليم أظافره، صنعت حوله سياجا من حديد، تفاخر به نسوة الحارة - رغم أنها كانت تعتقد في خطر ضربة عين جاراتهم ممن كن يتعاهدن بالحسد- التي تنزوي بعيدا جوار عزبة النخل، نسي الأستاذ عوض أحلامه التي راودته في سني عمره الأولى، لقد أدارت بوصلته بمهارة، تعد له كل ليلة جدول الدروس الخصوصية، مثل قرد إفريقي ينتقل من "أتوبيس لآخر" ولأنها تعرف عدد زبائنه، بل وأماكنهم، كانت كثيرا ما ترافقه بل تنتظره حتى يأتي بالمعلوم، حدث ذات مرة أن تطلعت نفسه لبعض ماضيه-هي لم تكن معه-اقترب من سور الأزبكية، جذبه "خان الخليلي

" يا لروعة نجيب!

أدار يده وأخرج عشرة جنيهات، اشترى تلك الرواية، غفل عن مواعيده، بل نسي أن يضع يده في

جيبه، ضاعت فلوسك يا عوض!

لعله أضاعها، أو لعل اللكع بالعتبة سرقوه

تأخر عن البيت فالساعة تقترب من منتصف الليل، لقد كانت صبيحة الجمعة، ويا لموعد منتظر، زوجين من

الحمام، أعدتهما!

فتحت له الباب، لقد عاد بوجه آخر، هل ترى أصابته عين أم سحر؟

أحضرت البخور، أعاذته بكرامة السيدة، وفي الصباح كان مثل طفل بين يديها!

## 10- الشقراء

كثيرون مروا من هنا، ولأن الطريق موحش كان ذلك المنسدل غطاء رأسه تحنثا، له لحية يتخللها العطر المنسكب من بين أنامل إحدى زوجاته الأربع، بعينه وطف، ولصوته بكاء، أعلم أنه يجذب بطنينه، وبشارته المئين من المجاذيب، وكنت يوما أحدهم، شببت عن الطوق، لا أدري متى، فأنا درعمي، فلا طاقة لي بكل هذه البكائيات، مرة اعتصرني الوجع آويت إلى ذلك الشيخ المتخدج دائما، جمعت أفكاري، بل وارتديت ثيابا تبدو مثل ثيابه، قلمت أظافري، أطلت لحيتي، تأبطت كتب الأوراد، مثل مجذوب السيدة تابعته كظله، الفتيات يتبعنه، غير ملقيات لزمنهن بالا، إنه يمسك بمفاتيح الجنة، يمكثن الساعات يستمعن، لذلك الحداء والبكاء، أحال ثيابهن مثل أغربة سوداء، بل وجدت لبعضهن بياضا يشتهى تحت وقع سياط التزمت بدت نافرة، أعرفها جيدا، إنها الشقراء التي كان يحلو لي مغازلتها، كم كانت جميلة!

مولانا يبث عيونه بينهن، ولأن صغرى الأربع عنده مدللة، وشت إليه بجمال الشقراء، أحقا كنا يتركن شعورهن ويضعن زينتهن أمام مرآة عيونهن، في عجالة من أمره صدرت زفرة التعدد، حث عليه، استمال قلبها، إنه الإمام المقدم، والأشرطة المسجلة التي تملأ الطرقات لهجا بذكره، ليتني كنت الإمام!

لقد اقتنصها مثل يمامة أمسكتها يد ثعلب والغ في الدماء، يومها بكيتها، بل كرهته ولكن ذلك الخبر لو علمه لعرض بي؛ سأحرم من درسه وفلسه، تكتمت أمري، والجرح ينزف، صرت أرى بغير عينه الوطفاء، كم هو لص!

ولأن درعميتي تغلبني، نزعت بي نحو تاريخ بغداد، وجدته "ابن العلقمي" يلعب نفس الدور، الحية هي هي، بل لقد كان هو هو، شعرت بمدى ذلك الخداع الذى تلبسني أعواما، ما حيلتي وهو مطهر مصيب عند المجاذيب لا مجال للرأي، أدرت الأفكار في رأسي، لا سبيل إليه إلا بها، لكن هل تراها تهجره وتشي به؟

يا لسوء الخطة، لم أكن في يوم لص أعراض، دائما يشهد الله أن ثوبي طاهر، حين آويت إلى ركن بيتي المتهدم، فلقد سرق عمري أضعته سرابا وراءه، كنت مثل جرو تلقى إليه كسرات خبز مباركة من يد مولانا، لأول مرة بدلت ثيابي بما اشترته لي أمي ذات عام مضى، نزعت تلك اللحية المصطنعة هباء، أبصرت بغير عينه، لقد أفلحت هذه المرة، وجدتها تخاطبني: أنا وأنت وقعنا في مصيدة، هي وجدته ذا علة ولأمر ما لا يفلح!

أحسست برعدة من كلماتها المعراة من برقع الحياء، أعلم دلالة الألفاظ؛ أنا درعمي، أبانت عن وجهها الأشقر، مثلما نزعت لحيتي، أنا البكر الرشيد، وهل أملك مالا؟

لست أنت ابنة سعيد بن المسيب، ولا أنا تلميذه؛ هكذا أجبت!

يكفي أن الزيف قد ارتحل موليا، أجيد سرد قصصه، سنبتاع على حكاياته، وهل نكمل الخدج مرة ثانية؟

الطريق من هنا أشارت إلي مثل ابنة الرجل الصالح، تبعتني، وكم يحلو للعفاف رجاء، الجموع في الأزقة صنعت من خطبه كومة يلهو بها الأطفال، رحلة عمر بلا فائدة، الناس استردت وعيها، المغول يسقطون تحت سيف قطز، ويا للفاجعة بيبرس فوق صهوة جواده، ابتسمت من طرف خفي، أنت صاحب القلعة، دونك القلب ذي سهم" كيوبيد"!

أفقت من نومي، المؤذن يدعو جموع المتدثرين بذلك الغطاء الشتوي "حي على الفلاح" القيصر في حلب.

## 11- حلب

الساعة الثانية من اليوم الثالث عشر من ديسمبر في العقد الثاني من المائة الأولى من الألفية الثالثة، ولأنه قادم من غياهب التاريخ، ليس من بعيد تماما، إنه قد سلم لتوه مفاتيح غرناطة، لقد حمل كل أوزار آبائه وأعمامه، لقد زفر هناك حيث وجد بقايا سفن طارق، لا يهم فبنو الأحمر ما يزالون يمضغون القات، يتدثرون بتلك السيوف والخناجر، وفي المساء تتراقص النسوة ولعا بتلك الثياب المخملية، وحين ذاك يحلو النسيان، وتبلغ حميا الصهباء منتهاها، البعض سيقول ليتك ما سردت، بل وهل أملك غير الأنين؟

فرديناندو الوغد لن يضاجع نساء كل بني الأحمر، تلك ثمالة رأي، لا تلزمني أن أتحلى بالوقار، ها قد استبانت الوقاحة علانية دون مواربة كشفت عن ساقي عنزة.

أمرني أن أمحو ما خطت يميني، امتنعت فلقد تملكني النزق، وأوجعني الحرق، دعني أمزق ثيابي، سأمشي في الطرقات عاريا، لقد جننت، هذا منتهى حالي، أترى ذلك السر مما يمكن كتمانه، لقد رأيت إيزابيلا تتمتطى في كل الحارات والأزقة، تبيع الهوى، وتختال ميسا وقدا، لم أعتد بهذه اللغة، ولربما الآلام أفاقتني، كنت تخدرني بالنكبة العربية الكبرى، تعللني - أمي- بسعد وطارق!

وها أنا اليوم وجدت كل ذلك سرابا، لقد شاهدت فرديناندو يرتدي عمامته الحمراء، يمتطي صهوة جواد عربي أصيل، الخيول هنا ضامرات عجاف، ولكن خيله مزينات فاتنات، لا تسمعني غير أهازيج الطرب، لقد مللت من حديثك المغالي في كرامات لا تجد من يتوضأ لها، بالفعل هذا كان حديثي الليلة في رؤيا وجدت أثرها في نفسي، ولأنني درعمي، فتاريخ الأندلس حاضر في ذهني، قم يا صلاح الدين، وما دريت بالمحنة التي تضرب مقامك، امتط صهوة جوادك، ريتشارد على أبواب القدس يراقص فرجينيا، يا للفاجعة، ما عاد غير مدن الملح أستطعم ماءها الأجاج، ماذا أقول ؟ولقد رأيتهما معا، يتخادنان في وضح النهار وقد تراقصت أمامهما نار كسرى، لعنة الله تنزلت، الأماني منك نار يا قيصر، إنه إيفان الرهيب، لقد شاهدته هنا يوزع هدايا عيد الميلاد، تقرع أجراس آيا صوفيا فرحا، تتنادى البيع صلوات في محفل حيي، أبرهة أدرك ثأرك، ما عاد هنا عبد المطلب- فذا هو أبو رغال بعينيه وطف- أعلم أنني أهذى، وهل أجدى علي عقلي نفعا؟

أنا مصاب في كبدي، نعم وعلتي لا شك قاتلتي، واليوم فقط أحببت أن ألهو، أن أستحضر كل النوائب ومن ثم أبصق عليها، كرهت أن أتجمل بثياب العيد، حين أبصرت ابن عباد يلطمني أدركت كم كنت حقيرا!

ليتني أنفذت تلك النصال في كبدي المقرحة، ولقد هممت أن أسب سيف الدولة، وهل عادت لحلب دولة؟

أن أهجو المتنبي، فلقد خدعني بسيفياته، الجنون هو أسلم طريق للحياة، دعوني أهتف في الحارة أن الأندلس تتكرر، وقرطبة ما بكتها، ولا القدس آزرتها، مدن المحميات صارت للملح سكنا، عارا وخيانة، وهل تطلبون منا نحن المتخمون بالمرارة أن ندافع وحدنا، لعنة الله عليكم يا من ضاجعتم الخطيئة!

الكلمات التي أتصبر بها الآن مثلي والهة حيرى، قدرنا أن نقتات الهزيمة، أن نتبادل كؤوس الخمر حتى الثمالة، نعم ما بالكأس غير دمائنا، لم تبق غير أمتار مرهونة في سوق النخاسة، يقامرون به علانية دون مواربة، أيها المتعجلون خرابا دعوا القاهرة عامرة، دعوها تلملم جراحها، وهل من الحكمة أن تحترق مرتين.

## 12- فأر عم فؤاد

لم يعد للحكايات رونقها، كل الكلمات صارت باهتة، لاجديد تحت شمس الشتاء، الغيوم تتراكم، والقليل من المطر يتساقط، حتى الأقلام جف مدادها، لم يعد لعمي فؤاد مكان بيننا، كان يقص أجمل خواطره، الشباب تسربوا كل إلى مقهى، بل إن الفتيات غادرن حيث عالم آخر، لقد سكنت الشبكة العنكبوتية عقولهم، غادروا المحكى اليومي بلا رجعة، تحولت أفكارهم بل واختياراتهم صوب جهة، ما حذرهم منها عمي فؤاد فعلوه، الخطر كامن بين تلك الصور المخادعة، إنها تجذب في غير انتباه، تترك أثرها، وها هم صاروا كائنات تمضي بطريق ربما لا تؤمن عواقبه!

أحدهم ممن لا يجيد غير كتابة النشرات المخفية بين طيات المراسلات ذات النكهة السرية، يترصد دلالات الكلمات البرتقالية، الرموز قد تجلب الثورة، لقد تم تدجين العم فؤاد منذ زمن بعيد، حين علموا- وفي الواقع كانت ضربة موفقة منهم -أن لسانه به زائدة مطرية، لو قطعوها خلسة؛ وهكذا يفعلون دائما؛ حيلة مخادعة أن يستولوا على عقل ذلك المسكون بالقص، يتلاعبون بخلايا برمجته العصبية، ليكن له ناديه، وليقف الحارس الليلي ذو النظارة الطبية ببابه، تنتشر عنه الأقاويل، إنه عالم من السحر، له ذاكرة عجيبة، يحسن السرد ويأتي بالخيل إلى ساحات الغزو، السيرة الهلالية، الجنية والنهر، حديث الهراس، كل ليلة يلوك حكاية، والمخدرون تشخص عيونهم، لم يكن مخادعا، هو لا يعي أن يد خفاء لعبت بتلافيف عقله، لقد صار مثل تروس الطاحونة التي سكنتها الفئران!

جاء شتاء وراء شتاء غامت الرؤى، اعتل عمي فؤاد، لابد للعمر من انحناءة، لم يعد لسانه يلوك تلك العلكة اليومية، ثقب فأر شارد ذاكرته، لقد تهرأت، آه لو كانوا يعلمون، ما لبثوا في ذلك الخدر سنين!

الشمس حين تشرق في أيام الحصاد تغادر البرودة كهوف الجسد، الحياة تسري كما لو كانت قصيدة حب غزلية، الفتيات الآن على موعد مع الربيع، لقد انتهى البيات الشتوي، الجمال الأنثوي صار يزهر مثل الأقحوان البري، أعواد الرمان، لها ورود حمراء، لقد أنعش الربيع نفوسهم، صارت المدينة أزهى، الممرات بها شرايين جديدة، حين غابت ذاكرة عمي فؤاد بالعجز انبثق نور الفجر، لملموا بقاياهم المتشردة وراء أكوام من مخلفات ليالي الغفلة، صاحب النظارة الطبية، هو الآخر ما عاد مبصرا، تحركت تلك الزنابق تداعت مثل حبوب لقاح في مواسم التزاوج، الهمسات تحولت لشلال هادر، لكن الأيدي صغيرة مثل نبتة لم يشتد ساعدها، التنين تحت ثقل قدمه أخفاها، تأوهت كثيرا، الصوت واهن ولا صدى، فمن يستمع الآن يجد له ألف سوط رهقا!

يوما اهتز مؤشر البوصلة، لقد تسلل الفأر إليها، مثلما فعل جده بسد مأرب، اندفع الماء، خمدت منه الجذوة عند البقعة المباركة، الأخبار تتوالى ؛ الرجل ذي العين الزجاجية سمح له بالتجول في الميدان، الشبكة العنكبوتية هي الأخرى صارت قن دجاج شهي، العم سام يتلاعب بأرصدة الخزانة، الكلمات في الفضاء الأزرق عاودت حكي السيرة الهلالية، لم يعد عم فؤاد واحدا؛ لنلهو خلفه، كان والده ناظرا لدار العلوم، ليته لم يولد، أ هو زمن التهرب من كل القيم، أحقا كانت تلك اللعوب التي تمايل خصرها علينا ذات يوم أما له؟!

## 13- تجاعيد الزمن!

لا أدري ما الذي جاء بطيف جدي الصاوي إلي هذه الليلة؟

هل اقترب رحيلي عن هذا العالم المسكون بالقلق؟

كنت دائما أتسمع حكاياته من أمي التي لم تبقى في ذاكرتها غير ومضات من حديث جدتي؛ مات منذ زمن طويل، ولأن الحكايات مثل وشم على جلد لا يمحو الزمن خيوطه، بقيت تلك السيرة ماثلة في عقلي أستدعيها وقتما أريد، فكما تعلمون هوايتي القص، على كل رأيته هذه المرة وقد حمل عصاه، بعض شياه تتبعه، لم يكن مفتول الشارب، كان متعبا فقد تراكمت الهموم عليه، مع أنه قادم من ذلك الزمن الذي حمل أنفاس الطيبين هكذا اعتادت جدتي أن تتحدث عنه، فالجدات لا يغادرن الماضي رغم بعض ألمه، حديثه يجعلنه رفيقا فيما تبقى من عمرهن، الرحيل صوب الأرض التي احتوت أجساد الآباء، الآن الذاكرة أكثر فتوة، كلبه يتبعه مثل ظله، لم ينطق بكلمة واحدة، لا أدري أتلك هي صورته في عالم الحقيقة أم أنا من كونها من شتى وجوه العائلة؟

لم أهتم بذلك كثيرا كل ما أعيه أنني أبحث عن شيء ما، لم تكن ثمة وثيقة واحدة تثبت وجوده، الشاهد الوحيد أنه مر من هنا، ربما لأن الآخرون ارتحلوا، أخذتهم النداهة بعيدا، ألقت بهم حيث المتاهة التي لا عودة منها، لم أكن محظوظا بطبيعة الحال؛ أن تبقى في أرض تتنكر لك تلك محنة قاسية، بدأت أتلمس الطريق، الكل ذكرني بابن الصاوي، هل حقا أنا ولده؟

ربما

فالمتنبي ربته جدته، ظل مجهول النسب فما سره أن لقب بابن عيدان السقا!

حاولت التخلص من تلك الذاكرة الممتلئة بالغرائب، كم أرجو أن أمحوها!

أن ألقي بها في النهر غير آسف، بقيت لي منه السمة، الوشم العلامة على ظاهر يدي، لست على كل حال

هجينا، الآن تركت حرفة جدي الصاوي، هربت من شياهه، وضعت ثيابه في صندوق خشبي، حتى عصاه جهدت أن أحشرها بين طيات الملابس العتيقة، تأبت علي!

لا أدري ما الذي جعلها تقف شاخصة هكذا؟

السوس نال من طلائها، لم ينفد إلى قلبها، بعد ما يقارب الثمانين عاما نظرتها فإذا هي فتية كأن لم تختف من

مس البعيد، هل عادت له شياهه من جديد؟

كانت سيفه، الربوة التي كان يقف عندها ليرعى اختفت معالمها، تحولت لوكر يبيض فيه الشيطان، يشرف منها على الوادي الذي كان أخضر!

لملمت بقايا جدي، استجمعت مفرداته التي سمعتها من جدتي كل ليلة كانت تجمعنا، هي تمتاز بتلك الحكايات، تضع حبات الفول السوداني، ثم تسرد في غير انقطاع كيف ضرب جدنا الصاوي أحد العساكر الإنجليز بتلك العصا، ذلك الوغد يريد أن يسرق شاة، ربما كان شعرها يغطي نصف ظهرها يتماوج مثل أعواد الصفصاف عند حنية النهر، يومها أسال دمه وألقى به في قرارة حفرة عند مقابر المجرية!

كانت عصية مثل مهرة عربية، تلك الحكايات مثلت هذه الليلة كائنات بشرية لا أحدد لها وجها مميزا كل ما أعيه منها ذلك الوشم المختزن على جبهتها، الحياة تتدفق بكآبة، السحنة الحمراء عادت تتلصص على مربد الشياه، غاب مجددا جدي صاوي، التابع الذليل يختلس النظر إليها، يراغمها بل يراودها عن حملانها، الرعاة خارج البادية، يلوكون سمر المدينة غناء ولهوا، خصورهم تثنت مثل بغي جاءت من بلاد الثلج والخمر!

تنبهت الفجر موعد، رغم القهر.

## 14- ثوب زاه

الأحلام المؤجلة تسبح في فضاء يزدهي برونق من طلاء عجيب، الخيالات مثل أجنحة طائر يغرد بلحن يسحر الآذان، هكذا رأيت أفكاري المرتقبة كل ما أخفيته وجب الآن البوح به، فما جدوى تلك المفردات التي سجنت في معجم ساكن أمسك بدلالاته وحدي، الماضي يتتابع مثل متوالية الأعداد التي تتعامل معها الآلة الحاسبة التي احتفظت بها في خزانة المكتب، لا وقت للانتظار، العمر يغافله الجني الساحر، لقد سلب ذاتي، جعلني أدور وراءه مثل مجذوب يهيم عشقا بفاتنة لن تأتي، الخيال يا له من رواء كاذب للحالمين به!

في مرات سابقة عاجلت الفجر، دعوته أن يلوح بشارة الأمل، كان واهنا، أصابته علة الصبر، منذ أعوام يقف عند قارعة الطريق، لكنهم أرهقوه بأحمالهم التي ناءت بها أجسادهم، كلفوه بما لا يطيق، إنهم يتعجلون مشرق الشمس، العمر يتهرب كأنما يخاف أن لا تدركه قافلة المغادرين صوب النصر، تفرقوا كل استلب عقله زيف، أنا ذلك المعنى بحلمه، الراصد لنجمه، يغزل من خيوط الفجر الثوب الأرجواني، هيهات تأخذني الأوهام في طريق لامفر من السير فيه حتى نهابة الشوط، ذلك قدري الذي يحوطني، علي أن أغادر فراشي .

الخروج من الشرنقة، تعددت المآسي التي سكنت نفسي، أخذت وقتا ليس بالقليل ؛ لأتعافى من آثارها، النسيان ذلك الدواء الذي تعاطيته مرغما، هو مر لكنه على كل أجدى نفعا، تركت بعضها عند أول موقف تعرضت له، سبب واحد جعلني أبحث عن التشافي مثل باحث عن أمل وسط كومة من الآلام، ربما كان ذلك آخر حيلة التجأت إليها، كنت مثل عجوز وهنت قواه استند إلى حائط متهدم، مضت تلك السنوات مثل نصل غرس في صدري.

آن لي أن أعانق الحياة من جديد، لتغادر الهموم بلا رجعة سقف بيتي، علي أن أفتح تلك النافذة الموصدة منذ أطل الشيطان بقرنه، يا له من عدو ينتهب لحظات عمري، لقد أسدل غلالته السوداء فأعمت بصري، تركتني أتخبط دونما هدف، مسلوب الإرادة فاقد الشعور بالزمن، كل من رآني يذهل لتغضن جفنا عيني، صرت مثل رجل خرج لتوه من حفرة سكنها مجبرا، القبر الذي أودعت فيه دونما شفقة، هيهات ترد تلك الظنون الفائت من عمري المهدر، أوشك الشتاء الرابع أن ينتهي، البراعم بدأت تبحث عن ضوء الشمس.

رأيت صبيحة هذا اليوم أن الحياة أخذت طريقها من جديد، لحظة الميلاد المختزنة طوال أشهر كل ما فيها كان ساكنا، والآن وجب علي أن ألبس ثوبا آخر، لن تقتلني تلك المآسي، أعلم أن جراحي غائرة مثل جب يوسف، ولكن حبل النجاة ألقي إلي، إنها طلبت أن أبدل تلك السحنة التي لازمتني، ليس من السهولة أن تختفي المحنة، تذكرت مقولتها: إنهم يراهنون على مرضنا، يشقون إن التحفنا بضوء القمر، يحبسون الشر ويدخرونه لأجلنا، لهم عيون تعمى ولا ندرك الطريق!

وقعت كلماتها من نفسي حمدا، بدلت مألوف أيامي منذ تلك الفاجعة، علي أن أعاود الحديث عن الآمال بل تلك هي مهمتي التي لا بديل لي عنها، ما أتعس اليائس من رحمة ربه!

ولأن الربيع بقف بباب الحديقة يغازل أغصان أشجارها، غرست شتلات الورد، نثرت حبات الأقحوان البري، أعواد الرمان شذبتها، قطعت في غير أسى جذور نبات العليق، وقفت أنظر الحملان وهي تثغو، إنها على غير عادتها تمرح، أكان ذلك تفاؤل منها أم لعلها تجاوبت مع دفق مشاعري؟

نحن نصنع عالمنا، الكون انعكاس لها، ذلك قول يفسر حالتي، استغرقت تلك الخواطر التي أسطرها بعض وقت لأتذكرها، لست واهما يا عزيزتي، بل ولست بطبيعة أمري بلا غاية أسعى لتحقيقها، كل ما في الأمر أنه لم يعد بي صبر على تلك الآلام التي التفت مثل ثعبان حول عمري، الآخرون يصفقون بل سيبالغون فيه طربا إن وجدوا مني الانحناءة، هل أعطيهم ما يشتهون؟

العمر يمضي نهبا مثل عقارب الساعة التي فقدت اتزانها، غابت اللحظات الجميلة بفعل القهر الذي انتهب أجمل الأحلام، تكيدهم بسمتي، تشقيهم سعادتي لست ظل رجل، ولا عملة زائفة!!

لن ألتفت للوراء، يكفيني ما أصابني من سهام غدر، النهر سيغسل بمياهه -حين يأتي الفيضان- تلك المحنة، سيرمي بالعوالق الميتة في لجة البحر، كل ما علي أن أبقى حاملا مفتاح العودة، أعلم أن الأبواب توارت تحت ركام من مخلفات الظلام والأقفال صدئة، سأعتمد على بقايا ذاكرتي، الخطو ما يزال أثره هنا، المصباح الأبيض يكشف خبايا العتمة، الرهان دائما يكسبه من يحسن زراعة الصبر، وهل بقي لي غيره أمل؟

كنت مثل النابغة، بنت ليل ناوشتني، تهيبت منها، وهل لأعزل أن ينجو من لحظها المخادع إلا بحيلة ؟

ولأن وجهه كريه، تقول أمي حين يأتيك شره اتل آية الكرسي، خواتيم سورة النصر، أعلم أن ذلك صعب على بلوغ مراميه، يكفيني المحاولة، لن أبكي على تلك الترهات التي بلغت بي حد الهاوية، لن تدوم تلك المحنة، فرج الله يقترب، كما المطر يهطل فيغسل أدران السوء، الكون يتسع لكل الأحلام التي سعيت خطوي لأدركها، الدموع

مطهرات وشفاء لتلك الجراح، أنا واحدهم، ليس لي عنهما غناء، سألزم موضع خطوهم، وهل يبدل المرء اختياراته التي وشمت فوق ظهره؟

حتى وإن غامت سماء كنت أرقب نجمها، ما لي بد غير هذا، لتكن لي ذات تتجمل بالخير، الغول ذلك القميء المنزوي في كهف ناء جوار الأحجار المكدسة ثقلا فوق تلال الزمن، يترصد الساعين بأحلامهم نحو العلا، أوقف الرحالة استلب من الأمهات الحملان، سلبهن الضروع، ألقى بالثياب البيضاء المعدة للعيد في نيرانه التي أشعلها حقدا، يالقسوة الغدر، لم أدر من أي ناحية يأتي بتلك العداوة؟!

آن لصوتي الواهن أن يرعد في ظلمة الليل الحالكة، يسابقني حلمي وأغفل عن ساعته، يترصدني الألم فأشرع له بابي المحطم؛ هروبا وما بي غبر تصبر بأيام الله.

**المحتويات**

[1- حجرة عفا عليها الزمن 3](#_Toc478467519)

[2- البيت الأصفر! 5](#_Toc478467520)

[3- الرحلة المتدثرة بالألم 7](#_Toc478467521)

[4- حلم عند ضفة النهر 10](#_Toc478467522)

[5- عودة 11](#_Toc478467523)

[6- دوار الهنادوة! 13](#_Toc478467524)

[7- نبات على كوبري عبد 14](#_Toc478467525)

[8- عفوا حذاء مشترك 15](#_Toc478467526)

[9- جيب عوض المثقوب 17](#_Toc478467527)

[10- الشقراء 19](#_Toc478467528)

[11- حلب 21](#_Toc478467529)

[12- فأر عم فؤاد 23](#_Toc478467530)

[13- تجاعيد الزمن! 25](#_Toc478467531)

[14- ثوب زاه 27](#_Toc478467532)